

القصيدة العينية في النفس ومعارضاتها

عرض : د. عبد الكريم اليافي

شغلت النفس الانسانية أفكار الفلاسفة منذ القدم . وقد كتب ابن سينا عدة رسائل في هذا الشأن . منها « أحوال النفس » نشرها د أحمد فؤاد الأهواني والحق بها ثلاث رسائل أخرى صغيرة لابن سينا أيضا في النفس . وقد عالج الشيخ الرئيس مسألة النفس في مواضع متعددة من كتبه . وظن انه كان يسائل نفسه في الحين تلو الحين عما قرره أو فكر فيه . ولا شك أنه اطلع على بيتي الرازي :

لعمري ما أدري وقد آذن البلى   بعاجل ترحالي الى أين ترحالي

وأين محل الروح بعد خروجه   من الجسد المنحل والهيكل البالي

فنظم قصيدته المشهورة هذه وهي التي يقول فيها ابن أبي أصيبعة انها « من أجل قصائده وأشرفها » .

ولشهرة هذه القصيدة عني بها طائفة من الشراح . ذكر شروحها الكثيرة حاجي خليفة في « كشف الظنون » وذكرها الاب قنواتي في « مؤلفات ابن سينا » وذكرها يحيى مهدوي في فهرست مصنفات ابن سينا .

وأورد حاجي خليفة أنه قد خمسها الشيخ منصور المصري وأول التخميس :

يا سائلاً عن كنه ذات البرقع

وشرح التخميس أبو البقاء الأحمدي



ومن أشهر شروح القصيدة المطبوعة شرح نعمة الله الجزائري الشوشتري وشرح عبد الرؤوف المناوي •

وقد عارضها شعراء متعددون نذكر ممن نظم على بحرها ورويها قديما عفيف الدين التلمساني وحديثا أحمد شوقي والشاعر الاديب عادل الغضبان وصديقنا العالم المفكر الأديب نصوح الطاهر نشر ذلك في رسالة لطيفة سماها الروح الخالدة تناول فيها أقوال بعض الفلاسفة في النفس •

هذا من المناسب أن نذكر هنا أنه قد اختلف في النفس والروح خلال الحضارة العربية الاسلامية فقيل هما شيء واحد وقيل هما متغايران • وقد يعبر عن النفس بالروح وعن الروح بالنفس • يقول ابن الفارض :

مالي سوى روحي وباذل نفسه	في حب من يهواه ليس بمسرف

فقد استعمل الروح والنفس بمعنى واحد في البيت •

وعند تسوية النفس بالروح انما يراد بها النفس الناطقة أو ما يدعى الفكر أحيانا بالتعبير الحديث • والمراد بالنفس في قصيدة ابن سينا هذه النفس الناطقة أو الروح الانساني والروح تذكر وتؤنث في اللغة :

هبطت إليك من المحل الأرفع	ورقاءُ ذاتُ تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف	وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما	كرهت فراقك وهي ذات تفجع
ألفت وما سكنت ، فلما واصلت	ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهوداً بالحمى	ومنازلاً بفراقها لم تقنع
حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها	عن ميم مركزها بذات الأجرع
علقت بها ثاء الثقيل فاصبحت	بين المعالم والطلول الخضع
تبكي وقد ذكرت عهوداً بالحمى	بمدامع تهمي ولما تقلع
وتظل ساجعةً على الدمن التي	درست بتكرار الرياح الأربع
إذ عاقها الشرك الكثيف وصدها	قفص عن الأوج الفسيح المرْبَع
حتى إذا قرب المسير من الحمى	ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
سجعت وقد كُشِف الغطاءُ فابصرت	ما ليس يدرك بالعيون الهجع

وغـدت مفارقـة لكل مخلّفٍ عنها حليف التُّرْبِ غير مُشيَّعِ
وبدت تُغرّدُ فوق ذروة شـاهق والعلم يرفـع كل من لم يُرفـع
فلأي شـيء أهبطت من شـاهق عالٍ إلى قعر الحضيض الأوضع ؟
إن كان أهبطهـا الآله لحكمـة طويت على الفذ اللبيـب الأروع
وهبوطهـا إن كان ضربـة لازب لتكون سـامعة بما لم تسـمع
وتعـود عالمـة بكل خفيـة في العالمـين ، فخرقهـا لم يرقع
وهي التي قطـع الزمـان طريقها حتى لقد غربت بغير المطلـع
فكأنهـا برق تألـق بالحمى ثم انطوى فكأنـه لم يلمع
أنعم برد جـواب ما أنا سـائل عنه فنـار العلم ذات تشعشـع

وقد أغفلت بعض الروايات البيت الاخير

□ □ □

قصيدة عفيف الدين سليمان بن عبد الله بن علي التلمساني (٦١٠ /١٢١٣ ـ ٦٩٠/١٢٩١) وهي في ديوانه المخطوط تنشـرها لاول مرة • يتغنى فيها الشاعر بمذهبه الصوفي ، ولكنه ينظر فيها الى بعض تعابير الشيخ الرئيس :

يا طيبَ ما أهدى نَسيمُ الأجرَعِ عنهم فأسْكَرَني وأطرَبَ مِسمَعي
فخلعْتُ من طربٍ عليه حُشاشَتي لمّا أتى ونَثَرْتُ جَوْهَرَ أدمُعي
عَجَباً لمَنْ أهدى السّلامَ وشَخصُهُ أفْديهِ أدنى لِلْحَشا مِنْ أضلُعي
وحَدَّثتُ معنى الحُسن فيه ولا أرى تَنَويْهُ فا لَقولُ أشهدُهُ مَعي
ما لِلمَليحَة غَيرَها من عاشِقٍ فَهيَ المَصونَة في الحِمى المُتمنّع
ولَقد بَدتْ فَرَأتْ بَديع جمالِها كلُّ العُيونِ وحُجْبُها لم تُرفَعِ
لكِنْ وَعى من لا يَعي عَنْ غَيرِها وأنا الّذي هُوَ عَن سِواها لا يَعي
وبِحُسْنِها الباقي الّذي أفناهُمُ عنهُمْ بإطْلاقِ الجَمالِ المُبْدعِ
قالَت لِكُلِّ مُتيَّمٍ ظَهَرَتْ لهُ فارِقْ وُجودَكَ فيهِ غَيرَ مودَّعِ
يا سَعْدُ بالعلمينِ مِنْ رمل الحمى وَدَّعْ حَشاكَ بذاكَ المُستودَعِ
وإذا دعاكَ هوىً لِساكنةِ الحمى فلكَ البِشارَةُ بالمَحَلِّ الأرفَعِ



سكرَ الكرامُ ببنتِ كرْمتِها وما شربوا ومالوا بالشذا المتضوِّعِ
مَن لم يمت بالسكر منها لم يَعِش أبداً ومَنْ لَم تَدْعُهُ لم يَسمعِ
إن كانتِ الغاياتُ أنْ يرقى الفتى زَمَنَ الفناءِ الى المحلِّ الأرْفَعِ
فلقد بلغتُ مبالغَ العقلِ الذي قدْ كانَ في الإيجادِ أولَ مُبدعِ
ورأيتُ ما لا ينتهي مِنّي بما لا ينتهى وسَمعتُ ما لمْ يُسمعِ
وطلعتُ في كلِّ المطالعِ واحداً هوَ عَينُ طالعِها وعَينُ المطلعِ
متوحداً بالذات فيه كثيرَه بالوصف والفعل اللذين لمسمعي
فمَواقِفُ الإدراكِ دونَ مَواقِفي ومَشارِعُ الورّادِ ليس كمشرَعي

□ □ □

قصيدة شوقي نشرها في مجلة المقتطف مجلد ٦٤ عدد يناير ١٩٢٤ م :

ضمّي قناعك يا سعاد أو ارفعي هذي المحاسن ما خلقن لبرقع
الضاحيات الضاحكات ودونها ستر الجلال وبعد شأو المطلع
يا دميةً لا يستزاد جمالها ، زيديه حسن المحسن المتبرع
ماذا على سلطانه من وقفة للضارعين وعطفة للخشع
بل ما يضركِ لو سمحت بجلوة ؟ إن العروس كثيرة المتطلع
ليس الحجاب لمن يعز مناله إن الحجاب لهيّن لم يمنع
أنت التي اتخذ الجمالُ لعزه من مظهر ، ولسره من موضع
وهو الصنّاع يصوغ كل دقيقة وأدقُّ منك بنانه لم تصنع
لمستك راحته ومسك روحه فأتى البديع على مثال المبدع
الله في الأحبار : من متهالك نضوٍ ، ومهتوك المسوح متصرِّع
من كل غاوٍ في طويَّة راشد عاصي الظواهر في سريرةِ طيع
يتوهّجون ويطفؤون كأنهم شرُجٌ بمعتركِ الرياح الأربع
علموا فضاق بهم وشقَّ طريقهم والجاهلون على الطريق المهيَع
ذهب « ابن سينا » لم يفز بك ساعة وتولت الحكماء لم تتمتع



هـذا مقامٌ كلُّ عـزٍّ دُونَه ... شمس النهار بمثله لم تطمع
فـ «محمد» لك ، و «المسيح» ترجّلا ... وترجلت شمس النهار ليوشع
ما بال « أحمد » عَيَّ عنك بيانُه ... بل مال « عيسى » لم يقل ، أو يدّع
ولسان « موسى » انحل إلا عقدة ... من جانبيك علاجُها لم يَنجع
لما حللت بـ « آدم » حَلَّ الحبا ... ومشى على الملا السجودِ الرُّكع
وأرى النبوة في ذراك تكرمت ... في «يوسف» وتكلمت في «المرضَع»
وسقت «قريش» على لسان «محمد» ... بالبابلي من البيان المُمتع
ومشت بـ «موسى» في الظلام مشرداً ... وحدّثته في قلل الجبال اللمّع
حتى إذا طُويت ورثْتَ خِلالها ... رُفع الرحيقُ وسِرُّهُ لم يرفع
قسمت منازلك الحظوظُ : فمنزلا ... أتْرَعن منكِ ومنزلا لم تترع
بخليّة بالنحل منك عميرة ... وخليـة معمورة بـ « التبّع »
وحظيرة قد أودعت غُرَرَ الدُّمى ... وحظيرة « محرومة » لم تودَع
نظر « الرئيسُ » الى كمالك نظرة ... لم تخلُ من بَصَرِ اللبيب الأروع
فرآه منزلة تعرّض دُونها ... قِصرُ الحياة وحال وشك المصرع
لولا كمالك في « الرئيس » ومثله ... لم تحسُنِ الدُّنيا ولم تترعرع
الله ثبّت أرضَه بدعائمٍ ... هم حائط الدنيا وركن المجمع
لو أنَّ كلَّ أخي يراعٍ بالغٌ ... شأوَ «الرئيس» وكلُّ صاحب مبضع
ذهب الكمالُ سُدىً وضاع محلّه ... في العالم المتفاوتِ المتنوِّع



يا نفس ، مثلُ الشمس أنتِ ، أشعة ... في عامرٍ ، وأشعة في بلقع
فاذا طوى الله النهارَ ، تراجعت ... شتّى الأشعة ، فالتقت في المَرجِع
لما نُعيتِ الى المنازلِ غُودِرت ... دَكّا ، ومثلُكِ في المنازلِ ما نُعي
ضجّت عليك معالماً ، ومعاهداً ... وبكت فراقك بالدموعِ الهُمّع
آذنتِها بنوىً ، فقالت : ليت لم ... تَصِلِ الحبالَ ، وليتها لم تقطع



ورداء جثمانٍ لبستِ مرقّمٍ ... بيد الشباب على المشيبِ مرقّع
كمْ بِتِّ فيهِ ، وكم خفيت كأنّه ... ثوبُ المُمثّل ، أو ثياب المرفع
أسمتِ من ديباجه ، فنزعتهِ ... والخزُّ أكفانٌ إذا لم ينزَعِ
فزعتِ ، وما خفيتْ عليها غايةٌ ... لكنْ من يرِد القيامةَ يفزع
ضرعت بأدمُعها إليكِ ، وما درت ... أنَّ السفينةَ أقلعت في الأدمُع
أنتِ الوفيّةُ ، لا الذمام لديكِ ، مذ ... مومٌ ، ولا عهدُ الهوى بمضيّع
أزمعتِ فانهلّت دموعُكِ رقّةً ... ولو استطعتِ إقامةً لم تزمعي
بان الأحبّةُ يومَ بينكِ كلّهم ... وذهبتِ بالماضي ، وبالمتوقّع

□ □ □

قصيدة عادل الغضبان نشرها في عدد ابريل ١٩٥٢ من مجلة الكتاب :

ورقاء ، يا صنو الملائك ، رجّعي ... نغم الهوى ، وبحمد ربك فاسجعي
وتخايلي بالأجملين : عقيرةٍ ... تسبي ، وثوبٍ بالجمال مرصّع
قال الرئيس ، وقال عنك سليفه : ... مخلوقةٌ أثمت ، ولم تتورع
فأذاقها الرحمن سوط عذابه ... ورمى بها في حالكات الأربع
جسدٌ براه الله سجناً للتي ... أثمت فعاشت في خراب بلقع
نزلته فافتقدت به آي الحجى ... وأحالها النسيان وجه مقنّع
فإذا بكيتِ فمن أسى وتوجع ... وإذا حننت فمن جوىً وتفجع
حاشا ، فما خلق الإلهُ عبادَه ... مزقاً ، وسوّاها بكف مرقّع
الله خصّكِ بالجمال مُلالئاً ... في الريش منك وفي الصداح الأبرع
خُلقتما معا : وبدا كمالُكِ فيهما ... يزجي الدليل على كمالِ المبدع
سبحان من بدع السماءَ وشادها ... ملكوتَ أبرارٍ ، وجنّةَ خشّع
وأحاط قائمَ عرشه بملائكٍ ... من قائمينَ على الصلاة ، وركّع
نثروا على درج الجنان أشعّةً ... مجلوة بسنى الإله الأسطع

حتى ارتدى بالكبرياء زعيمُهم / وصبا إلى عرش العليِّ الأرفع
فكبا وطغمته العصاةَ وأبدلوا / نارَ الجحيم من النعيم الممرع
كانوا النجومَ النيِّراتِ ، فأصبحوا / سُجَناءَ في ظلماتِ ليلٍ أسفع
متقلّبين على مَجامِرِ إثمِهم / ومُصَعَّدين بِكلِّ أرقم مُوجع
يتحرّقون إلى السَّنا فيصدّهم / عن نبعِهِ الفيّاضِ ربُّ المَنبع
أغضى عن الملإ الأثيمِ وشاقه / أن يَصنعَ الإنسانَ أجمل مَصنع
جبل التراب ، وقدَّ منه أضلُعاً / كمُلت ، وبثَّ الروحَ بينَ الأضلع
حتى إذا نفض اليدين ، رنا إلى / بشرٍ سويٍّ بالبهاء مُوشَّع
سطع الجَمالُ بكلِّ جارحةٍ به / وجرى بأجنحِ روحه المترفّع
فأحلّه بالصدر مِن فِردوسِه / وأقامه مَلكَ الخلائق أجمع
ينهي ويأمرُ والعوالمُ كلّها / خدمٌ ، تلبّي ما يقول ويدعي
يقتاتُ من ثمر الجنان ، ويستقي / من كوثرٍ ، مترقرق ، متدفّع
أغواه إبليسٌ ، وأوغرَ صدره / فغوى ، وقال : أنال كلَّ مُمنَّع
فجنى المحارمَ ، وانتشى، وصحا على / صوتٍ ، يُجلجِل بالرعود، مُروِّع
ناداهُ من عالي الذُرى : يا كافراً / بالخُلد والنُّعمى دعوتك فاسمع
اغربْ عن الفردوس، واضرب في الثرى / واسكن بوادٍ بالمدامع مترع
وانصب، وشقَّ الصخر واستجدي الثرى / واظفر بخبزك ناضجاً بالأدمع
بدّلت بالسعد الشقاءَ ، فعش به / وملأت كأسك بالأذى ، فتجرَّع
هذا قصاصك في الحياةِ ؛ فإن تمت / فلسوف يرميك الجحيمُ بأفظع
لكن سأهديك السبيلَ بصفوةٍ / من أنبيائي المرسلين ، وتبّعي
فإذا اهتديت فجنتي لكَ مربعٌ / وإذا ضللت خسرت أطيبَ مربع
فِردوسك المفقود ، فاكسبه تَقم / فيه إلى أبد الأبيدِ ، وترتع

* * *



أسطورةُ النفس الأثيمة قصةٌ ... نبتت على دِمن الزمان المهجع
أيامَ يرتعُ بالجهالة أهلُـهُ ... ويدينُ بالأوثـان كلٌ سيدع
أوحى بها (بُوذَا) فسارت في القرى ... وسرت بأجنحةِ الرِّياحِ الأربع
وروتْ لها أن النفوسَ ظعائنٌ ... تبكي على وطنٍ أعزَّ مُضيع
تنفكُّ عن جسـم وتلبسُ غيرَهُ ... حتى تعود إلى حماها الأمنع



تلك الرِّوايةُ رمزُ قصـة آدمٍ ... في فنّها ، وختامها ، والمصـ
النفسُ في البدنِ المرقّق بالسّنا ... كالشمس في الكون البديـع الأسنع
كلٌّ بصاحبـه يبثُّ وقيـده ... ويحفّه بضيائه المتفـرّع
تنمو وآلتها ، وتدرّج في الحمى ... قدَماً ، وتدرجُ في حمى مترعرع
وهِبتهُ سفراً أبيض الصفحات ما ... تكتبه فيه يد المدارك يطبـع
تقنوه بكرُ سُلافةٍ لم تمترج ... بعصـارة الذكرى ولمْ تتشعشعِ
ولـو ان بالتذّكار إدراكَ المنى ... ساويتُ بين أخي الحِجى والأرقع
إن النفوس هي الكواكب بعضُها ... باهِي الضّيـاءِ ، وبعضُها لم يلمع
مُتميّزاتٌ بالفضائل والهدى ... مُترجّحـاتٌ بالفؤاد الأروع
عاشتْ تُكفّرُ عن جريرةِ آدمٍ ... فكأنّها قُربُ الشّفيعِ الأشـفع
يخبُو من الدُّنيا سعيرُ شقائِها ... في يوم تهجُرها بطرف مُوَدّعِ



سبحانك اللهمَّ أنت المبتدَى ... والمنتهى للعابدين الخُشّـع



هذا وقد جاء في كتاب الكشكول للعلامة بهاء الدين العاملي (٩٥٣ ــ ١٠٣١ هـ) بعد أن أورد مؤلفه قصيدة ابن سينا أن « حاصل الابيات التسعة (فلأيّ شيء .... فكأنها برق) أنها لأي شيء تعلقت (النفـس) بالبدن ؟ ان كان لامـر غير تحقيق الكمال فهي حكمة خفية على الاذهان • وان كان لتحصيل الكمال فلم ينقطع تعلقها

به قبل حصول الكمال ؟ فان أكثر النفوس تفارق أبدانها من دون تحصيل الكمال ، ولاتتعلق ببدن آخر لبطلان التناسخ » ـ (تحقيق طاهر أحمد الراوي ج٢ ص٣٥)

ولم ينتبه من عارضها من الشعراء لسؤال ابن سينا وانما تفننوا في معارضتها من دون أن يجيبوا عنه ، ما عدا علي تصوح الطاهر في رسالته التي أشرنا اليها آنفا

ولقد كنا نشرنا مقالا في مجلة « المعرفة » السورية بعنوان « تعليقات على عينية ابن سينا » ذكرنا في مستهله أنهذا البحث يعالج «غاية حياة الانسان الفرد اذاكانت لها غاية أوان كان يمكن استشفاف تلك الغاية بالفكر . وهو يتخذ قصيدة ابن سينا ذريعة لذلك اذ كانت تنتهي بسؤال عن تلك الغاية ويكثر مستطردا حولها من الشواهد ليبين احتمال اختلاف الجواب . تلك الشواهد تبرز في الوقت نفسه تراء تراثنا العربي التالد لتفضي من مختلف الاحتمالات الجوابية الى أنه من الضروري تلمّس البعد الاجتماعي في تلك الغاية » .

وختمنا المقال بأن سؤال ابن سينا شعر . ولابد لنا من أن يكون جوابنا الختامي شعراً لزيادة الايضاح في موقفنا ولاسباغ التناسب :

مهما بلوت النفس بالتحليل لم	تحصل على حلٍّ أكيد مقنع
سر من الاسرار أعيا فهمه	من شئت من طب ومن متنطع
قل للرئيس مقالة من واثق	بجوابه من علمه المتنوع
النفس تبذل وسعها في سعيها	نحو الكمال الشاسع المتمنع
لكنها جزء من الشعب الذي	يبني الحياة معا بناء المبدع
النفس ليست وحدها في سعيها	أبداً فكل في الورى ذو موضع
وكأنها برق تألق هاتكا	حجب الظلام بنوره المتصدع
تمضي ويبقى سعيها متحققا	أبد الزمان على أديم الأربع
متضامنا مع غيره متجمّعاً	شأن الخضم الزاخر المتدفع
وسلاوة من سؤدد متألق	اجدى إذاً من ألف عام بلقع
فاصرف جهودك للعلا متحفزاً	يكفيك نيل القصد والمتطلع
هذا جواب سائغ ومحقق	فاحرص عليه ودع كلام المدعي